كتاب تحت الطبع

أميرة بابلية

اكتشاف لسيرة ورصد لنجمة أشعت من سماء تلكيف إلى ثقافات الدنيا مخبأة في مدونات القرن التاسع عشر

٢-٤

تحرير امل بورتر

في هذا الكتاب سارافق القارئ والقارئة، ونسير سوية في عوالم ماري تيريز اسمر ،لنمر عبر صفحاتها بحوادث وممارسات عاشتها هذه المرأة، ولكنني ساتجاوز ما اجده لا يخدم الموضوع ، وساعلق واحاول ان اقرب المشهد من القارئ ولكن بلسان ماري تيريز اسمر وساضع الشروحات التي اجدها ضرورية في حاشية الصفحات، كل الكلمات العربية ساكتبها كما كتبتها ورغم انني لاحظت الكثير من الاختلاف بين الكتابة واللفظ وجود الاخطاء المطبعية والاملائية للكثير من الاسماء والمسميات العربية، حاولت ان اعود بها الى اصلها او ان اجد تفسيرا لها واستعنت بالكثيرمن اصدقائي وهم كثر ولم يبخل احد منهم بمساعدتي وتشجيعي فالف شكر لهم.

اعترف واعتذر من القارئة والقارئ لان ترجمتي لهذا الكتاب انتقائية فلقد وضعت نصب عيني هدفاً هو البحث عن مفردات نابعة من ارض بين النهرين فقط، لغرض ترسيخ مفهوم الانتماء الى هذه البقعة من الارض ، فانني اشعر بان الاحساس بالانتماء والمواطنه لهذه الارض ككل متخلخل بعض الشيء في الوجدان العراقي، لذا ركزت على محاور اعتقد انها تنسجم مع الهدف العام الذي اتبعه وهذه المحاورهي: الحالة الاجتماعية تجارب بدوية واوربية وتراثية وضع المرأة، اذ وجدت ان هذه المحاور تدخل في المضمون العام وضمن اطار واحد هو تفاعلات شعب يعيش على ارض ما بين النهرين(العراق) فهذه المحاور تغطي ممارسات مختلفة لناس وادي الرافدين ومن مناطق بيئية متباينة ، وهذا الاختلاف في طبيعة التجارب هو الذي يوحد هذه الامة.

كما واختصرت او تجاوزت ما وجدت فيه من اطناب واطالات لا تنسجم مع هدفي السابق ذكره.

قبل الدخول في تفاصيل الجزء الاول من الكتاب لابد من الاشارة الى ان ماري تيريز اسمر قد تمتعت بمستوى ثقافي معين، فمن بين صفحات كتابها نجد اشارات واضحة ومدلولات بينة على معرفتها واطلاعها على تاريخ وحضارات وادي الرافدين بشكل معمق ، كما وان هناك اشارات لعظمة بابل وحوادث تاريخية في تلك الفترة، واشارات الى سميراميس ونبوخذ نصر، وانها على اطلاع ومعرفة بالتاريخ العربي اذ تشير الى عنترة وشيبوب والف ليلة وليلة والى الخلفاء العرب وتشير الى عدم شرعية زواج المرأة المسلمة بدون موافقتها.

تقول انها قد الفت الكتب الدينية وقسم منها قد ضاع، .بخصوص هذه الكتب يوجد كتاب واحد في المكتبة البريطانية صغير الحجم فيه تأملات دينية ولا استطيع ان اصفه بانه كتاب يبحث في المعتقد، وفي هذا الكتاب اشارة الى سميراميس والحديث عن تاريخها بشيء من التفصيل الموجز، كما وانها على اطلاع على الثقافات المجاورة وتشير الى شعر حافظ والفردوسي، والى قصص العهد القديم. كما و تتحدث عن الممارسات الدينية المختلفة فتتحدث عن اليزيدية والاسلام رغم ان حديثها مقتضب واحيانا غير حيادي كما يجب عند البحث ، اذ يجب عقد مقارنات اذا كانت الغاية هي البحث المعمق عن هذا وذاك من الاديان او المعتقدات ولكنها لم تكن تبغي البحث اذا انها تتحدث عن تجارب عاشتها وعن بنية مجتمع منتمية اليه ، تقتسمه الطائفية والتعصب ورفض الاخر حتى الموت، كما وان ذكر تلك التجارب بها نوع من التوعية و التشويق والتحفيز للقارئ.

رغم اضطهاد عائلتها من قبل الدولة العثمانية الا انها دائما تشير الا ان الاضطهاد وقع من قبل تلك الحكومة- العثمانية تحت غطاء التعصب الديني، ولعدم القبول بالاخر، وللخوف من المختلف وللفائدة المادية والاستغلال واخذ الرشوة وفرض الاتاوة مما يدل على انها كانت تنظر الى هذه الممارسات بكثير من الجدية والموضوعية.

اتذكر اواسط الستينيات وانا اسير على ضفاف دجلة في الاعظمية الجزء الذي لم اكن اعرفه من بغداد انذاك، فانا كرادية وبحكم زواجي انتقلت من جنوب بغداد اليشمالها وجدت بيتا متواضعا جدا لا يدل على انه مميز وطراز بنائة مختلف جدا، سالت زوجي قال: هذا قصر شعشوع الذي ضيف الملك فيصل عند اول توليه مملكة العراق، انه بيت متواضع لرجل يهودي غني جدا وتعجبت من ان يطلق على هذا البناء البسيط والبدائي التصميم والذي بني من خليط الطابوق واللبن اسم قصر، ولكنني كنت انظر بالعين المعاصرة واقارن البيوت الكبيرة ذات الطوابق المتعددة والطارمات الكبيرة والبوابات الواسعة التي كانت تعود للطبقة الوسطى في ذلك الشارع من الاعظمية، كنت احسب بعين الحاضر مقاسات الماضي، لم انظر الى البيت وفق مضمونه التاريخي ،هذا يذكرني بحديث ماري تيريز اسمر عن بيت والدها وجارهم العصملي كما تطلق عليه وعن الاراضي في تلكيف التي بقدر مساحة اللوفر وفيها يسكن اربعون فردا من عائلتها مع الاقارب والخدم، انا لا اشك بصدق تقديرها لو حسبنا نفوس تلكيف ذاك الوقت والمساحة الفضاء اذ كما تقول عدد نفوس تلكيف كان ٢٠ الف نسمة اترك هذا لتقدير أصحاب الاختصاص بالنمو السكاني والبعد الجغرافي.

بدهشة بالغة امر على السطور وانا غير مصدقة عيني، ماري تيريز اسمر تتحدث بعشق وله عن كل شيء في بين النهرين، تصف لنا الطعام والملابس وطرق البناء والادوات المنزلية ،العادات الاجتماعية وتحدثنا عن الاديان ومواعيد الصلاة والاذان ورمضان والطقوس المسيحية وصوم الخمسين ، تتحدث عن البدو والايزيدية والاكراد والعرب والكلدان والسريان ،عن جو وحرارة صيف بغداد والنوم فوق السطوح والطارمات والشرفات والحدائق والحمامات العامة وعن النومي حلو البغدادي الذي تصفه الى الاوربيين وتقول لهم عن طعمه اللذيذ وقشرته الرقيقة، تتحدث عن الماضي والحاضر وبيسر وتلقائية تصف لنا الطرق الصحراوية والنهرية وبدون تبجح تشير لنا بتمكنها من الكثير من اللغات.

للصداقة وروح الاخوة مكان واسع في حياة ماري تيرز اسمر وفي محيطها ووسطها العائلي وبكل تواضع تشيرالى اهمية والدها واعتزازها بتقاليدها وتفاخرها بها كان ديدنها ومحور اهتمامها، وتردد ذلك باستمرار، في اي دولة اوربية تحل تصر على ان الشرق هو عنوان وينبوع الغنى والكرم والخلق القويم والصدق والجمال، ولا تضيع فرصة لتعير الغرب،وتوضح لأهله عيوبه ونقائصة، وتقارن بموضعية تامة، بعيدة تماما عن التحيز، سمو الخلق والطيبة والبساطة والتآزر والتعاضد في بلدها.

تضطرالى التدريس لتعتاش، تدرس اللغة العربية لاحد البارونات الفرنسيين وتقول لا احد يهتم باللغات الشرقية التي اجيدها ،وتستمر هذه الفتاة الرائعة فتتحدث عن تدخين النركيلة (الاركيلة) وتستصغر المرأة الاوربية لانها لاتعرف التبغ والتدخين في حين ان بنات الرافدين يعتبرن الاركيلة وشرب القهوة من متطلبات حياتهن اليومية ويشربنها بدون سكر او حليب وتستلذ بطعم القهوة وتوحي للقارئ بطيب مذاقها.

تصف اعراس البدو والفلاحين واهل المدن بمختلف قومياتهم. تتحدث بعفوية وصدق وحميمية وكانها جالسة بين الاهل والصديقات، تقول المرأة تعامل كعبدة مملوكة يجب ان يتغير هذا الوضع ولن تتقدم المرأة الا بالدراسة والتحصيل المعرفي و تسعى لأيجاد مدرسة للفتيات.

تسهب في وصف جميل لمواسم الحصاد في تلكيف ودرس الحبوب باستخدام تلك الالة العملية والذكية والتي تستخدم فقط في ما بين النهرين، وتفتح شهية القارئ وهي تحدثه عن تحضيرالطعام وانواع الخبز وصناعة الراشي وتصف السمسم والحمص لجمهور جاهل بهذه المنتجات تماما، تتحدث عن كل هذا للمجتمع الاوربي بكثير من الفخر والتباهي، تقول لهم رغيف خبز الرقاق المشهور في الموصل قد يصل قطره الى اكثر من ٦٠ سنتمترا ورقته لا تضاهى، وخبز الموصل المعجون بالدهن والذي سمك رغيفه اكثر من سنتمترين ونصف وتستمر في حديثها لتصف ادوات المنزل البسيطة من (لكن) الى الطاسة الى الفنجان وتستعمل اسماءهم المحلية العربية او الدارجة بعد ان تشرحها بالآنجليزية.

لا تغفل ماري تيريز اسمر عن الحالة الاجتماعية والتجارب الطفولية و التراثية والبدوية والأزياء والمجوهرات ، ولا تترك فرصة تفلت منها بدون ان تشير باصبعها للغرب قائلة بكل وضوح وصراحة نحن افضل منكم، وبحزن تتحدث عن تجربتها القاسية مع مبشر بريطاني، وشعورها بالاحباط من تصرفات رجل الدين الغربي هذا الذي لا يفهم النفسية الشرقية ومضايقته لها وبالتالي التجاؤها للبدو، وبكل لامبالاة وبكثير من التحدى تنتقد روما الصرح الكاثوليكي الذي تستند إليه في معتقدها.

ابتهالاتها ونصوصها الدينية ساترك ترجمتها اذ من الممكن ان تكون في كتاب اخر خاص بمسيرتها الدينية ، كل ما يهمني الان السجل الموثق الذي تركته لنا عن حالة وادي الرافدين في تلك السنين. اما الجزء الثاني من الكتاب فاغلبه يعكس الحياة التي عاشتها في لبنان وهو كتاب مثير جدا وكذلك تتحدث فيه عن سفرها الى اوربا وسيصدر بعد هذا الجزء.

تجدر الاشارة هنا الى ان الموصل قد انجبت رحالة اخر مهم اسمه الياس حنا الموصلي الذي وصل في ترحاله الى امريكا الجنوبية والشمالية سنة ١٦٦٨ ولقد ذكر في بعض المؤلفات وتمت دراساته رغم انني لم اطلع عليها تفصيلا الا انه كما يبدو كان لرحلته الطابع الديني الصرف بحكم منصبه الديني ولااريد ان استبعد معرفة ماري تيريز اسمر بخبر هذا الرحالة اذ كما تشير الى ان عمها كان مطران ديار بكر

حفزتني ماري تيريز اسمر وجعلتني اتمنى مستقبلا ان استطيع مقارنتها ببنات جنسها الرحالات من شعوب مختلفة وخاصة من الفترة التي ظهرت بها.

ساتبع نهجها في سرد الاسماء والمسميات ولن اضيف عليها اي صفات او اشارات تعظيمية كما قد تعودنا على اضافتها لانني اريد ان احافظ على النفس الذي تحدثت به وهي تروي لنا سيرتها.

الشبك في كتاب جديد

د. رشيد الخيُّون

مر الكثيرون بنواحي الموصل، من موظفين ورحالة وباحثين عن معاش، لكن القلة من هؤلاء لفت انتباهم ما في تلك النواحي من تنوع ديني ومذهبي وعقائدي، حتى يحق القول أن الموصل مازالت متحفاً للعقائد والمذاهب. أرض محصورة بين الجبل والجزيرة، ويخترقها دجلة، وداستها عبر القرون الطوال حوافر خيل أقوام من مختلف الملل والنحل، فلابد من أن تبقى بقية من تلك الآثار، ناهيك عن العراق وما فيه من طين يصلح لكل ملة ومذهب.

فعلى أرضه استكمل اليهود مقالات دينهم، وقبل امتداد المسيحية إلي الغرب احتضنتها جبال حدياب (أربيل) والموصل، حتى أصبحت المدائن مقراً للكنيسة الشرقية، ووصل ظلها الوارف حتى الهند والصين ومنغوليا. وعلى تلك الأرض تمازج المندائيون مع السومريين والبابليين، لتظهر قصة الخلق وقصة شيطانة العشق ليليث (ليلى) في كتبهم. كان ذلك من قبل الحظوة بترجمة الرقم الطينية إلي لغات أخرى، وإن دل هذا على شيء فيدل على عراقة تلك الديانة بالعراق وصلتها الشفاهية بحضاراته القديمة.

وكان العراق أيضاً، ودستميسان (العمارة) والمدائن مسرحاً للتبشير بالمانوية، عبر التماهي بين المسيحية والمندائية، واعترافاً بدور بابل في تاريخ البشر جعل ماني أرضها مقراً لكنيسته الكبرى، وأن الملاك السماوي لايلتقيه إلا عليها. لا يتوافر هذا المزيج والاختلاط البشري، والتجاور الديني والمذهبي، بكل عقده، إلا بين عقول خصبة، لاتعترف بتحريم البدعة، لأنها ابنة العقل ودالة التجديد، هذا ما قاله في تلك البلاد ابن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وابن أبي الحديد (٦٥٦هـ).

مؤلف كتاب "الشبك" القاضي زهير كاظم عبود واحد من الذين قادهم الفضول، وأبحروا في المعرفة والتتبع لما شاهده بالموصل من عجائب الوجود المللي والنحلي. يقول لك إلحاحه في الكتابة حول الشبك والأيزيدية بالذات أنه لم يشغله القضاء، بقدر ما شغله النظر والتفكر في أحوال الطائفتين، وظل هاجسة الأول بعد سنوات من ترك العراق إلي السويد. ولعله في هذا الطبع كان متبعاً أثر المحامي عباس العزاوي (ت١٩٧١)، والقانوني أحمد حامد الصراف (ت ١٩٨٥)، فالأول كان محامياً جوالاً، انشغل عن وظيفته القانونية بالتجوال وراء الأيزيدية والكاكائية والتكايا الصوفية، فأغنى بأخبارهما كتابه "العراق بين احتلالين"، و"العشائر العراقية" إلي جانب العناوين المنفردة في الملل والنحل. أما حامد الصراف فلا ينسى له بيتين من الشعر لخص فيهما التسامح الديني والمذهبي العراقي، قالهما أو انشدهما لغيره العام ١٩٢٨، عندما كرم المثقفون العراقيون، بزعامة الشاعر المتفلسف جميل صدقي الزهاوي(ت ١٩٣٦)، زميلهم وأستاذهم الأب أنستانس الكرملي (ت ١٩٤٧). قال:

وعشنا وعاشت في الدهور بلادنا
جوامعنا في جنبهن الكنائس
وسوف يعيش الشعب في وحدة له
عمامنا في جنبهن القلانس

لكن لأحمد حامد الصراف في شأن الشبك مالا يُحمد، رغم أن الرجل سعى إلي التعريف بهم، وشجعته محاضرة كان قد ألقاها بنادي القلم، في الثلاثينيات من القرن المنصرم، أن يصدرها كتاباً حولهم، ليجعل منهم فئة دينية خارجة عن المألوف والسائد، وكل مصدره كان شخصاً يدعى إبراهيم، مال عن دين أجداده ليقص على الصراف موبقاتهم وشذوذهم، وهذا مالا يقبله البحث، ومالا ينسجم مع سلوك قانوني. وقد التفت مؤلف كتاب الشبك القاضي زهير كاظم عبود إلي تلك الناحية، وفصلها في كتابه تفصيلاً مريحاً لطالب المعرفة.

حسناً فعل المؤلف أنه لم يعط في كتابه رأياً قاطعاً في أمر الشبك، بعد انتقاده لما كتبه الصراف ومن أخذ عنه، فقد ترك الباب مفتوحاً، بعد أن أتى بأكثر الآراء التي حامت ودارت حولهم، محاولاً تفنيد مالا يتفق مع المنطق في أمر هذه الجماعة.

عموماً، الشبك جماعة عراقية لها وجود، وليس هناك مايدل على وجود قومي صرف، أو نحلي صرف أيضاً، فلو أشرنا لهم بالقومية لقلنا أي لغة يتكلمون؟ وقد أجاب المؤلف أنها لهجة من اللهجات الكردية! وإن قلنا أنهم نحلة دينية فأي ديانة يخصون؟

ومع كل هذا التناغم، وعدم الخصوصية يظهر المؤلف تعاطفاً مع أمة شبكية أو شعب شبكي، وبطبيعة الحال ليس من الحق لومه على ذلك، وإن اختلف الآخرون معه، فالشبك من قبل صدور كتاب أحمد حامد الصراف (١٩٥٤) كان لهم اسم بين التكوينات العراقية، وكثيراً مادمجوا في الإحصاءات السكانية مع الأيزيدية، إذ لاتبدو دراستهم، والبحث في شأنهم ترفاً، بقدر ما هو التفاتة جادة لأحوال هذه الجماعة، رغم عدم تمايزها الكلي مع الكرد قومية، ومع المسلمين ديانة ومذاهب.

أيد مؤلف الكتاب جهده بوثائق شبكية: رسائل استغاثة، وعرائض احتجاج، ومطالب بحقوق سياسية ودستورية. أجد في كتاب القاضي الباحث زهير كاظم عبود تأرخة جادة لجماعة كثر القيل والقال حولها، وحير اسمهم الألباب، ومازال الأمر غير محسوم، لا في كتب الباحثين ولا في دوائر الدولة. كذلك أيد كتابه بمراجع ومصادر، وقابل فيه بين مختلف الآراء من دون إهمال أهل الشبك أنفسهم، وهذا هو الأهم في أدوات البحث إن سعينا إلي إنصاف أي جماعة.

ادغار والاس في ذكرى ميلاده

ما من كذبة نيسان كهذه الحياة الأدبية: ١٧٣ رواية و٢٤ مسرحية و٢٠٠ قصة قصيرة!

ميكائيل كينسز

ترجمة : عادل العامل

هناك تحديان متوهجان يؤطران حياة ادغار والاس الادبية، تلك الاكثر من بين كذبات نيسان وفرة بالانتاج (وقد ولد هو يوم ١ نيسان ,١٨٧٥ وتشتمل المنافسة على الكاتب المسرحي الفرنسي بادمون روستان وايرل روشيستر). فحين لم يجد والاس ناشراً لروايته الاولى، (الرجال العادلون الاربعة)، نشرها بنفسه عام ١٩٠٥، و"زاد من سحرها"، كما جاء في الغلاف الامامي، بحذفه الفصل الاخير. وقد عرض ٥٠٠ جنيه آنذاك مكافأة للحول الأكثر دقة لسر جريمة القتل في الكتاب. وكان عليه عندئذ ان يتعامل مع آلاف المشتركين في المسابقة، وكان الكثير منهم على صواب بشكل يثير الحنق- فقد عرف المئات من القراء من الذي قتل سير فيليب رومان و"ماهو تفسير اليدين الملطختين" – غير ان المباع من نسخ الكتاب لم يكن كافياً لتغطية تكاليف الاعلان. ولم تنقذه من الافلاس إلا سلفة مقدارها ١٠٠٠ جنيه من الفريد هارمزوورث، مستخدم والاس في صحيفة الديلي ميل. وقد صور، فيما بعد، (مفتاح سر الشمعة المفتولة)، روائياً قد ركبه الدين وكان يفخر باكتشافه ان صديقاً له يستطيع في العادة ان يحزر نتيجة احدى "روائعه المثيرة" من الفصل الخامس!.

وجاء التحدي المثالي كنتيجة للسنوات التالية من النجاح، فقد كتب والاس ١٧٣ رواية، و٢٤ مسرحية، و٢٠٠ قصة قصيرة. وخلال العشرينيات من القرن الماضي كان كل واحد من اربعة كتب تباع واحداً من اعماله الادبية، الانجيل وحده الذي كان يبزه في البيع. وكانت النكتة الشائعة آنذاك: "هل قرأت والاس منتصف النهار؟"! ودارت في حينه إشاعة مفادها ان انتاجيته منشؤها فريق من كتاب ما وراء الستار (أي الذين يكتبون اعمالاً ينشرها بأسمه). وقد راهن على استمراريتها بعرضه ٥٠٠٠ جنيه مكافآة لمن استطاع اثبات انها حقيقة. ورغبة منه في تبرئة نفسه وبدافع الاغراء، ذهب الى هوليوود، ومات وهو يعمل في سيناريو لفلم King Kong عام ١٩٣٢، وقد بدد ثروته على الخيول البطيئة والعيش باسراف.

ان طريقة الصياغة التي لا تقتضي البراعة الفائقة تجعل من والاس شيئاً يتسم بالمتعة التي تشعر الواحد بالاثم (وقد فاجأ بعضهم بيرتولت بريخت ذات مرة يقرأ رواية او مسرحية لوالاس مغلفة بالغلاف الورقي لكتاب Das Kapital)! وحين واجه احدهم مارتن غاردنر بمثل هذا المقدار الكبير من النتاج، والكثير منه ليس بالجيد ولا بالرديء، بنى دفاعه على نحو يتسم بالاطلاع الواسع حول رواية بارزة وحيدة، هي (الرامي الاخضر The Green Archer). وبخلاف ذلك، كانت (هودر وستوتون) تعرف ان الكمية اكثر مقبولية في المصرف من النوعية. وعند فهمها ان بامكان والاس اغراق السوق لوحده، راحت تعظمه، واصدرت اربعة وستين من عناوينه بالجملة.

وبالرغم من ان حكايات والاس الرائعة زاخرة بالاعمال البطولية الجريئة، وبالمكائد الخسيسة، فان عناوين مثل (Good Evans)، وسميثي، والهوني، تبين ان عالمه القصصي هو في بعض الاحيان Blandings Castle اكثر من ارسكين شيلدرن والكاتب الاسكتلندي جون بوتشان. فشخصيتاه الجاريتان، المفوض ساندرز والملازم بونز تيبيتس، يخاطبان احدهما الاخر بـ "عزيزي الضابط العجوز" و"عزيزي القائد العجوز"، بكل احترام. ويتنافر هذا مع صورة والاس، وراء التوهج، ككاتب دنيوي عرف عادات البشر كجندي ثم كصحافي في جنوب افريقيا. وبدوره، كان الروائي الانكليزي ب.ج. ودهاوس من هواة كتب والاس واسلوب حياته. وقد كتب، عند سماعه عام ١٩٢٨ بان ادغار والاس قد اشترى سيارة رولزرويس وسيارة خاصة لكل فرد من افراد اسرته الخمسة، قائلاً: "تلك هي الطريق لان يعيش المرء!".

عن / الملحق الادبي
لصحيفة التايمز اللندنية